

التفسير المختصر - سورة الشعراء (٢٦) - الدرس (١٢-١٥) : تفسير الآية ٢١٣ ، فلا تدعو مع الله إليه آخر فتكون من المعذبين .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٨-٠٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وأنفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.
أيها الإخوة الكرام، في حياة الإنسان مسرات وآلام، فالآلام مادية ومعنوية، والآلام المعنوية ترجع في معظمها ودون مُبالغة إلى الشرك والدليل قوله تعالى في الآية الثالثة عشر بعد المائتين من سورة الشعراء:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣)﴾

[سورة الشعراء]

قد يقول أحدكم: أنا لا أعبدُ إلا الله، وكلامه صحيح، ولكنهُ يدعو مع الله جهةً ؛ إنساناً أو أخواً أو صديقاً أو ابناً أو زوجةً أو قوياً، أو من هو فوقه ! فأنت لا تجعلهُ إلهاً ولكن تعاملهُ كما يُعاملُ الإله ؛ تخشاهُ وتعصي الله، وترضيه وتعصي الله، تُعلقُ الأمل عليه، ولا تعبأ بوعدِ الله، وتخافهُ ولا تخاف الله، وترجوهُ ولا ترجو الله، وترضيه ولا تُرضي الله، فإذا أرضيتَ جهةً غير الله فهذا هو الشرك، قال تعالى:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣)﴾

[سورة الشعراء]

حينما تعتقدُ أنّ إنساناً بيده أمرُك، ومصيرُك، ورزقُك، وبيده أن يُعطيك، وأن يمنَعك، وبيده أن يرفعك وبيده أن يخفضك ؛ هذا الإنسان أنت عاملتهُ كما يُعاملُ الإله، لذلك سوف تأتي للنفس البشرية آلامٌ لا توصف، قال تعالى:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣)﴾

[سورة الشعراء]

المُعذبون في الأرض ؛ هذه القصة الشهيرة، من هم المُعذبون في الأرض ؟ الذي جعلوا مع الله إلهاً آخر لكن هذا الإله الآخر، قد لا يرضى عنك، وقد لا يُسترضى، وقد لا يعلم، وقد لا يستطيع، وإن استطاع لا يعلم، وإن علم لا يقدر، وإن لم تسترضيه غضب، وإن أرضيته غضب الآخر، وإن أرضيت الآخر غضب هو! تمزق، لذا دعك من هؤلاء جميعاً واتصل بالله، وأرضه وحده، قال تعالى:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ (٢١٣)﴾

[سورة الشعراء]

تصوّر شركة مات صاحبها، وترك أولادًا عدّة، وكلّ واحدٍ من أولادِهِ له طَبْعٌ، ورأيٌ وأمرٌ ونهيٌ، وله ما يُغْضِبُهُ وله ما يُرْضِيهِ ؛ هؤلاء العَمَالُ يَتَمَزَّقُونَ ؛ إن أَرْضِيَتْ زَيْدًا أَغْضَبَتْ عُبَيْدًا ! وإن خَرَجَ مِنَ المَعْمَلِ لِئَلْبِي رَغْبَةً ذَاكَ غَضِبَ الأَخَ الأَخْر ! لذا أَيُّهَا الإِخْوَةُ ؛ التَّوْحِيدُ أحدُ أسباب السَّعَادَةِ، وَأَيُّهَا الإِخْوَةُ ووالله لا أُبَالِغُ ؛ كَلَّمَا تَقَدَّمَ العِلْمُ اكْتَشَفَ أَنَّ الصِّحَّةَ النَّفْسِيَّةَ أحدُ أكبرِ أسبابِ الصِّحَّةِ الجَسَدِيَّةِ، وَأَنَّ مُعْظَمَ الأَمْرَاضِ الوَبِيلَةِ بِسَبَبِ الشَّدَّةِ النَّفْسِيَّةِ ؛ وهذه حَقِيقَةٌ يَعْرِفُهَا الأَطِبَّاءُ، أَمْرَاضِ القَلْبِ، وَجِهَازِ الهَضْمِ، وَضَعَطِ الدَّمِ، وَالسُّكَّرِ وَآلامِ عَضَلِيَّةِ، يَكَادُ كَلَّمَا تَقَدَّمَ العِلْمُ يَكْتَشِفُ أَنَّ لِكُلِّ مَرَضٍ عَضْوِي سَبَبًا نَفْسِيًّا، وَأَنَّ الشَّدَّةَ النَّفْسِيَّةَ مَرْجِعُهَا إِلَى الشِّرْكِ، تَخَافُ الإِنْسَانُ فَهَذَا الإِنْسَانُ لا يَرِحُكَمُكَ وَلا يُحِبُّكَ، وَيَتَمَنَّى أَنْ يُوقِعَ بِكَ، وَتَخَافُهُ وَتَنْسَى اللهُ، تَرْجُو إِنْسَانًا فَيَخِيبُ ظَنِّكَ، وَتَضَعُ النَّقَّةَ بِزَوْجِكَ فَلا تَكُونُ فِي المُسْتَوَى المَطْلُوبِ، وَتُرَبِّي الطِّفْلَ وَتَتَعَبُ عَلَيْهِ، وَبَعْدَهَا يَهْجُرُ وَيَذْهَبُ وَيَتَزَوَّجُ امْرَأَةً أَجْنَبِيَّةً وَلا يَعُودُ، وَلا يُرَاسِلُكَ تَمَامًا، لَذا أحدُ أَمْرَاضِ العَذَابِ النَّفْسِيِّ أَنْ تَدْعُوَ مَعَ اللهِ تَعَالَى إِلَهًا آخَرَ، وَأَنْ تُشْرِكَ، وَما تَعَلَّمْتَ العَبِيدَ أَفْضَلَ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالقُرْآنَ الكَرِيمَ كُلَّهُ حَوْلَ التَّوْحِيدِ وَالدَّلِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾

[سورة الكهف]

فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَخَصَّ لَنَا القُرْآنَ الكَرِيمَ كُلَّهُ، وَأَنَا أُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ دَعْوَةَ الأنْبِيَاءِ جَمِيعًا هِيَ التَّوْحِيدُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ

العَزِيزُ الحَكِيمُ (٤)﴾

[سورة إبراهيم]

لَمَّا تَوَحَّدَ تَزَاحَ عَنْكَ كُلُّ المُشْكِلاتِ ؛ مُشْكِلاتِ الصِّحَّةِ، قالَ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾

[سورة الشعراء]

وَمُشْكِلاتِ الأُسْرَةِ، قالَ تَعَالَى:

﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾

[سورة الأنبياء]

وَمُشْكِلاتِ العَمَلِ، فَإِذَا الوَاحِدُ اصْطَلَحَ مَعَ اللهُ تَعَالَى وَتَلَى قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩)﴾

[سورة الشعراء]

أَغْلَقَ أوَّلَ بابٍ مِنَ أبوابِ القَلْقِ، وَكذا الرِّزْقِ، قالَ تَعَالَى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)﴾

[سورة الطلاق]

وقد أبى الله عز وجل إلا أن يجعلَ رِزْقَ عبده من حيث لا يحتسب والحوادث قال عنها تعالى:
﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾

[سورة التوبة]

فأنت إذا رجعت إلى الله، واصطلحت معه، وطبقت أمره ولم تعبأ بأحد:
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبين العالمين خراب
إذا صح منك الوصل فالكل منك هين وكل الذي فوق التراب تراب

فالواحد إذا علم أن كل شيء بيد الله، وهو الرزاق والمحيي والمميت والشافى، والممرض والمضحك والمبكي، تصبح علاقتك مع الواحد الأحد وبالمناسبة هناك أشخاص لا تستطيع أن تسترضهم، لكن الله تعالى قال:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾

[سورة الكهف]

فالله تعالى يرضى بالتوبة، ويرضى بالعمل الصالح، وتلاوة القرآن ويرضى بالندم، وبمجرد أن تتدم على عملٍ فقد رضي عنك، وهو في متناول كل مخلوق، بل إن سئل إرضاء الله عز وجل لا تعد ولا تحصى، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، والله عز وجل رحمة بهذا الإنسان ما جعل الماضي عبئاً عليه، قال لي أحدهم: لا توجد معصية تتصورها أنت إلا وفعلتها، فقلت له: نسأل الله أن يتوب عليك، فقال لي: والدليل؟ فقلت له: قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا
إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾

[سورة الزمر]

فالماضي يهدم في ثانية، وهو ليس عبء عليك، والإسلام يجب ما قبله، ولو جننتي بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك، ولا أبالي، فلو أن امرأة عرضت نفسها طوال الحياة بالمسارح والأفلام وهي أحد أكبر فتن المجتمع، فلما اصطلحت مع الله تعالى و تحجبت وستررت وجهها، وربما لازالت أغانيها وأفلامها تداع، قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا
إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾

[سورة الزمر]

يرزقك من حيث لا تحتسب، وصحتك هو المعافي لها، وزوجتك هو المصلح لها، قال تعالى:

﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾

[سورة الأنبياء]

وأولادك هو الذي يجعلهم يخضعون لك، لذا إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، يا ابن آدم أطلبني تجدني فإذا وجدتني وكل شيء، وإن فتك فأتك كل شيء، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد سلمت لك فيما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، فهذه الآية من الآيات الدقيقة جداً، قال تعالى:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ (٢١٣)﴾

[سورة الشعراء]

لا تخش إلا الله، ولا تعلق آمالك إلا عليه تعالى، ولا ترج إلا الله ولا تتقرب من أحد سواه. هل تعتقدون في الأرض كلها من آدم إلى يومنا هذا رجلين أشد حبا لبعضهما من رسول الله تعالى وسيدنا الصديق؟ قال:

((ما ساعني قط ! وما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر))

وقال:

((تسابقنا أنا وأبو بكر فكنا كهاتين))

ومع ذلك فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وقال:

((إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله قال فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خير فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر))

[رواه البخاري]

ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ! ولكن أخ وصاحب في الله وأنت يمكن أن تحب في الله، ويمكن أن تحب مع الله، الحب في الله كمال الإيمان والحب مع الله كمال الشرك، فإذا أحببت الله عز وجل فمن لوازم محبتك له أن تحب المؤمنين، ومن لوازم محبتك له أن تحب من حولك من المستقيمين، أما إذا أحببت إنسانا وحمك على معصية الله ولم تعبا بهذا فأنت أحببت مع الله، وهذا هو الشرك، وهؤلاء الذين حولك إن لم تكن أنت لهم فمن لهم، فالأقربون أنت الوحيد الذي لهم فإن لم تكن لهم فمن لهم، تهمل ابنك وتلحق الناس، لذلك قال تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾

[سورة الشعراء]

والإنسان إذا أكرم أهله فأكرامه مضاعف لأنه إكرام وصلة، ابنك أخوك وشريكك، والدعوة إلى الله تعالى لا كما يتوهم بعض الناس فرض كفاية، الدعوة إلى الله فرض عين، والدليل قوله تعالى:

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾

[سورة العصر]

والتواصي بالحق ليس كما نظن أنه يجب أن تكون أحد الأعلام الأفضاذا ! طالب علم، يجب أن
تُبَلِّغ ما سَمِعْتَ وَلِمَنْ تَعْرِفْ، والإسلام إذا توسَّعت دوائِرُهُ ضاقتْ دوائِرُ الكُفْرِ، والعكس بالعكس
فَمِنْ أَجْلِ الحِفاظِ على الإسلامِ وعلى وجودِ الحقِّ ينبغي أن نتواصى بالحق، قال تعالى:

﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (٣)

[سورة العصر]

وقال عليه الصلاة والسلام:

عَنْ سَهْلِ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((وَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهَذَاكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[رواه أبو داود]

قال تعالى:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴿

[سورة الشعراء]

التواضع، فيجب أن تتواضع لمن تُعَلِّم، ولمن تتعلّم منه، والتواضع أحد أبرز أخلاق المؤمن،
قال:

وَانظُرْ إِلَى الْأَكْحَالِ وَهِيَ حِجَارَةٌ لَانَتْ فَصَارَ مَقْرَأًا فِي الْأَعْيُنِ

فَالكُلُّ حَجَرٍ لَكِنَّهُ لِيَنَّ فَطُحِنَ فَوُضِعَ فِي الْعَيْنِ.

والحمد لله رب العالمين